شيخوخة جوته
١٨٠٥ – ١٨٣٢
للدكتور علي مظهر

لحق الاسى والجزع بجوته عندما فقد نده في الشعر والادب وزعامتها ونعني بذلك شلر الشاعر المفكر الذي قضى وهو في ربيع الحياة وتخليداً لذكراه وقياماً بالواجب نحو صديقه الراحل نظم له قصيدة سماها (النشيد الختامي للاجراس) وعاش جوته بعد شلر سبعاً وعشرين سنة كان فيها مثال الجد والنشاط في جميع ابواب العلوم والآداب فكنت تراه احياناً يدرس البصريات ونظريات الالوان وعلم تركيب عظام الهيكل الفقري وعلم طبقات الارض وعلم الافلاك والكواكب والتغيرات التي تطرأ على النبات وغير ذلك من الامور النافعة المفيدة . اما الشعر فكان حظه من قرضه في انشائها اقل مما سبق

وكان اول مؤلفاته المتعة روايته القصصية التي اسماها Die Wahlverwandschaften (القربى المختارة) التي اظهرها للناس سنة ١٨٠٩ . وقد اراد ان يبين في تلك الرواية ان سعادة الحياة تفقد بمجرد انفصام عرى الآداب الفاضلة . وقد خطر له هذا الخاطر عند ما فكر في مسألة الزواج الذي قال عنهُ انهُ هو مبدأ الحضارة وذروتها وانهُ اقدس عقد يعقد لا انفصام له اذ ان عروته وثقى . وان الزواج يكون مقروناً بالسعادة ويكون زواجاً حقيقيًّا اذا ما امتزج فيهِ الحب الطبيعي غير المتكلف باحترام الآداب ومراعاتها . ولنذكر ملخصاً لتلك القصة :

عاش ادوارد وشارلوتي عيشة زوجية سعيدة ناعمي البال كما كان يظهر عليهما وبقيت لهما تلك السعادة وذلك الهناء حتى ان دعت الزوج هويتمان واوتيلي في ضيعة لها بالريف وبمجرد ما حدث ذلك الاتصال بدأت (المعركة) وكانت شارلوتي امرأة حازمة خيرة امكنها ان تتغادى بكل ما اوتيت من قوة ما كان القلب بهِ يتحدث والنفس اليهِ تميل وان تقوم بواجبها كزوجة طيعة بارة وكذلكم كان هويتمان فقد كان رجلاً سلداً يعرف ان يضبط نفسه وان يراعي قانون الآداب الفاضلة وان يتغلب على حبه فيكبح جماحه . اما اوتيلي فكانت طفلة بطبيعتها لا تقدر ان تحكم عواطفها وميولها ولا ان تقاومها وكان ادوارد زير نساء من غواياته يعيش ويحيا وكان ارضاء ملذاته اكثر الاشياء التي تهمهُ وتشغله في هذا الوجود بل قل انهُ كان يعتبر غايتهُ من هذا العالم ووجوده فيهِ انما كان للافساد لا للاصلاح لهذا كان يعيش ولهذا وجد ولم يكن له من عمل آخر غير البحث والتنقيب عن الغواية والملذات فلم يتمكن هو ولا تمكنت هي من ضبط عواطفهما وتبعا غواية الشيطان وضلالته فعكر صفو تلك الحياة التي كانت من

قبل وكفرا بحقهما من آثامهما وانها كهما حرمة الآداب

ولما انتهى جوته من كتابة تلك القصة الروائية اراد ان يكتب قصته هو وان يصور للناس حياته وان يحفظ لهم تاريخها بنفسه فأخرج للناس كتاباً نفيساً عنوانه (من حياتي — شعر وحقيقة) وقد اظهر من هذا المؤلف سنة ١٨١١ الجزء الاول ثم ضم اليه جزءين آخرين بعدئذ ذكر فيهما على وصف حياته كما كان اقدماء يكتبون وكيف كان يعيش وجاء بذكر هفواته ومساعيه ومحاولاته وكيف تكونت عنده الشاعرية وقد اجاد في وصف ذلك ايما اجادة ولكن مما يؤسف له انه وصف حياته الى السادسة والعشرين من عمره والى ان اقام في فيمار فقط ونجد شيئاً من التتمة في اوصاف رحلته في ايطاليا ورحلته الثالثة الى بلاد سويسرا ووصفه لحلة في فرنسا وحصار مايز وفي كراساته اليومية والسنوية

ولما ان كانت حروب الاستقلال والحرية المعروفة عند الالمان ودع جوته تلك الحياة الثائرة الغاضبة وولى وجهه شطر الشرق فبدأ يدرس اللغة العربية والفارسية واخذ يترجم عن هذه اللغات بعض اشعارها احياناً او ينظم من عنده ويلبس قريضه ثياباً شرقية وقد جمع تلك الاشعار بعدئذ في سفر اسماه : ديوان الشرق والغرب (Der westoestliche Diwan) وظهرت تلك المجموعة الشعرية سنة ١٨١٩ اما زوليخا (Suleika) التي يذكرها في ديوانه هذا فهي السيدة ماريانه فون ويليمير Mariane v. Willmer واصلها من فرنكفورت (ولدت سنة ١٧٨٤ وتوفيت سنة ١٨٦٠) . ويؤخذ مما ذكره عنها في بعض قصائده ما كانت عليه تلك السيدة من سجايا فاضلة ونبل وشرف . وقد بدأ جوته صحبته لها سنة ١٨١٥ . ومع ان الشاعر لم يشترك في حركات الالمان الوطنية حينئذ ولكنه حيّى تحرير المانيا من نير الفرنسيين بروايته التمثيلية (يقظة ابيمينديس Des Epimenides Erwachen) التي مثلت في برلين يوم ٣٠ مارس سنة ١٨١٥

وكانت رغبة الشاعر الشيخ او شيخ الشعراء ان يتم مؤلفين كان قد بدأ بهما واشتغل بهما طويلاً فاظهر في سنة ١٨٢١ (سني تجوال فلهلم مايستر) وهو عبارة عن سلسلة من القصص عالج فيها تربية الانسان الخلقية الدينية وفيها آراء في التربية واجتماع الطبقات الوسطى وحياة رجال الادارة والسياسة وغيرها من القصص والنوادر

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره (١٨٣١) اتم جوته رواية (فاوست) التي اشتغل في اعدادها ستين عاماً . وكان اول ما بدأ كتابته فيها لما عاد من ليبتزج الى منزل والديه في فرنكفورت وكان يشغل نفسه بدراسة الكيمياء اثناء نقاهته ثم عثر على كتاب شعبي قديم للدكتور فاوست فأثرت الافكار التي وجدها فيه تأثيراً كبيراً وما زالت تلك الامور وغيرها تملك عليه نفسه ومشاعره حتى بدأ في كتابتها سنة ١٧٧٤

ثم اخذ جوته يزيد في روايته كل حين وصار يزيد في مجموعها ويضيف الى مناظرها مناظر

جديدة ويبدل ويغير فتراه يكتب بعض المناظر في اثناء سياحته الاولى في بلاد سويسرا وكذلك لما كان في ايطاليا واشتغل قليلاً بها لما كان في روما سنة ١٧٨٨ وما زال يكتب فيها كلما حطرت له اشياء جديدة حتى تم الجزء الاول وظهر سنة ١٨٠٨ اما الجزء الثاني فقد ابتدأ في كتابته وهو في سن الشيخوخة مع انهُ اشتغل بجزء صغير من قبل ذلك وترى جوته سنة ١٨٠٠ وهو يتبادل الرأي مع صديقه شلر لوضع خطة للجزء الثاني من (فاوست) وقد قرأ اوله على شلر في سبتمبر سنة ١٨٠٠ ولبث سنين لا يعمل فيهِ ثم عاد يعمل فيهِ حتى ظهر سنة ١٨٣٢ عقب وفاة الشاعر الكبير . وترى من هذا ان هذا العمل الكبير شغل حياة الشاعر كلها تقريباً او بعض آخر انه شغل نفسهُ طيلة حياته الشعرية بهذا الاثر النفيس الذي تجد فيهِ عناصر من كل درجات النشوء المختلفة التي مرَّ بها جوته كما انهُ يمكنك دراسة حياة الشاعر العقلية برمتها في طيات الخرافة القديمة . وبينما تراه يصف فيها اموراً حدثت لهُ اثناء حياته الطويلة اذ تراه يجعل من الاشياء الجامدة او الامور الشخصية اموراً واشياء عامة للانسانية لذ فانك لست بمستعرض صورة من صور عصره ولكن صورة من صور الدنيا والانسانية بأسرها . وترى فيها مناظر شتى منها ما هو محبوب ولطيف ورقيق واخرى كلها الشياطين والفظاعة والبشاعة ويريك صوراً شتى من اعمال البشر واوصاف الناس وافكارهم

وأول ما عني بهِ ما يثور في النفس من حروب عنيفة كالحرب التي تنشب بين العقيدة والعلم وبين طبيعة الملاذ البشرية وطبيعة العقل والحكمة . وقد افتتح جوته الاقصوصة بذلك المطلع على طريقة اهالي القرون الوسطى وما كانوا يتخيلونهُ من اسرار ومعجزات . فتراهُ يرجع الى كتاب ايوب في ذلك اذ يظهر الشيطان امام الله فيسألهُ الله عن ايوب فيجيبهُ الشيطان انهُ يراهن الله على ان ايوب قد عصاه لما حل بهِ من فاقة وبؤس . كذلك فعل جوته اذ يظهر الشيطان امام الله فيسأله عن (فاوست) وهل يعرفه فيسأل مفيستوفوليس الشيطانُ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ عما يرغب ان يراهن بهِ اذا ما جعله يضل السبيل وهنا سار جوته على منوال ما جاء بالتوراة اذ سمح الله للشيطان بأن يسعى لضلال ايوب . كذلك قال الله للشيطان ان يسعى لتضليل فاوست فقال الشيطان ما من شيء عسير عليه وانه سوف يضله سواء السبيل

وبعدئذٍ ترى فوست وهو رجل يعمل في غرفته منكبًّا على عمله يبحث وينقب ويدرس ولكنه لم يكن يقنع في نفسه بما ناله من دراسة وعلم كما كان يأمل حتى السحر الذي عني بهِ ووقف لهُ وقته ونفسه لم يصل الى اصل الوجود ومنشأه وكاد يأسه من ذلك يبلغ بهِ الى الانتحار بأن يشرب ما كان بكأس السموم ليريح نفسه من قيود الجسم التي تعوقه من التغلغل في باطن الطبيعة وتحول بينه وبين حقيقة الاشياء . وبينا هو يرفع الكأس السامة ليشرب منها اذ باجراس البيعة تقرع واغنية عيد الفصح تملأ الفضاء . فأعادت تلك الانغام ذكرى طفولته العذبة وذكرى

يأسه الاولى التي قضاها وهو طفل صغير فرجع عن عزمه ثم كاد يتغلب عليه اليأس من جديد واخذ يزمجر واصبح في قبضة الشيطان

وسار فاوست مع تلميذه وامين سره (فاغنر Wagner) المدعو فاجنر بروحان عن النفس واذا بالشيطان الشرير قد اتخذ هيئة كلب يصيص بذنبه وينظر الى فاوست نظرة كلها ملق فعطف عليه واحدمعهُ الى منزله وهناك عرف الحقيقة فاخذ يقرأ عليه آيات سحره وتعاويذه و (تمازيمه) فلم يؤثر كل ذلك فيه ثم انقلب الحيوان واصبح في هيئة تلميذ على اهبة السفر ولما سأله فوست عن حاله اجاب بانهُ (الروح الذي ينفي — اي يجيب بالنفي — دائماً) وقال لهُ انه سوف يبلغ حقيقته بعدئذ حين يسعى لمزج الحسن والجمال والحقيقة والطهارة بالقاذورات ظاهره حسن وكله لباقة ومهارة وبين وداخله حب اللذات واللؤم والسفالة. ثم انهُ وعد فاوست بالسعادة وراحة الضمير في هذا العالم اذا ما اسلم اليه نفسهُ ويظل العهد قائماً بينهما حتى يحصل فاوست على طمأنينته وراحة ضميره . وتم الاتفاق بينهما فاراد ميفستوفوليس ان يقود فاوست ويطلعهُ على ما بهذه الدنيا الواسعة الارجاء من مباهج وعظمة ومسرات . ثم اخذ الشيطان فاوست وطاف به في عالم اللذات الحية من اماكن لهو ومتاع واكل وشراب مما لذ وطاب ولم يؤثر كل ذلك في الدكتور وعندها اطلعهُ الشيطان على مرآة مسحورة فرأى بها اجمل صور رآها في حياته لامرأة ونزله شراباً ساحراً حرك فيه حب الملاذ والشهوات. وسار في المدينة فرأى (جريتشن Gretchen) احدى النساء الجميلات وهي التي عنى جوته بوصفها فتحركت اطماعهُ وغلبت عليه شهواته وطلب من الشيطان المساعدة والعون ومال الرجل الى البنت لما رأى فيها من طهارة وعفاف واحبها حباً جماً . وقرب فاوست ان يحقق آماله وان يظفر بالبنت زوجاً له وهنا ما كان اليه يصبو الاَّ ان الشيطان قد تغلب ونجح في تأثيره فقد اظهر لهُ صورة مشوهة من نفس جريتشن . ولشدة تعلقها بفاوست ضلت عن طريقها الى العفاف بحسن نيتها وعندها بدأ الشيطان يجد وينجد بها في هاوية الشقاء والبؤس وماتت امها لانها شربت شراباً مسموماً كان فاوست قد نصح البنت بتعاطيه ثم مات اخوها قاتلتين من يد فاوست وكان يحرس منزلها ليلاً ونجد يلعن اخته . وجعل الشيطان يضل فاوست ويجعله يسفك الدماء لكيلا يفلت من يده ويظل تابعاً له . وما زال ذلك الشيطان اللعين يمس الاثنين فينخبطان ويقعان في حبائله ومكائده . وترى الآنسة قد حملت وقتلت طفلها واستولى عليها الجنون وزجت في اعماق السجون فقس عودها وهزل جسمها ووقفت بين يدي العدالة لتكفر بالموت عن سيئاتها . وعندها اشتد غضب فاوست على الشيطان اذ انهُ اخفى عنهُ كل ذلك واراد التخلص منهُ والخلاص ولات حين مناص فقد استولى عليه اليأس وجعله يتمسك به لكي يساعده على تخليص جريتشن من السجن والقيود . وتمكن فاوست من اقتحام السجن ليخلص محبوبته المسكينة ولكنها

راجعت ولم تأمن على نفسها . وقدمت للمحكمة الجنائية العليا فرأى رئيس القضاة ان يعفو عنها بعد ان توسلت هي اليهِ وظل فاوست في رعاية الشيطان ورهين ارشاداته . وان هنا ينتهي القسم الاول من فوست وفيهِ ترى ان فاوست قد طاف بكل ناحية من نواحي العلم والعرفان ولكنهُ لم يشف غليله وانهُ ذاق كل انواع الملذات والمسرات ولكنهُ لم يرض مصيره وظل اكثر التصاقاً بالشيطان من ذي قبل . وفي القسم الاول من تلك المأساة ترى العقدة تعقد وفي القسم الثاني منها ترى حلها

فاذا ما حئنا الى القسم الثاني رأينا فاوست في رعاية الشيطان في بلاط احد القياصرة الذين ساء ملكهم وفسد نظام امورهم قد تحكمت بملكه الفوضى وعم الظلم والجبروت وارتفع العدل وندر في السوق المنور عليهِ وأكل الناس الاموال بينهم بالباطل وكثرت الرشوة وأصبحت الخزائن اخوى من جيب الموظف آخر الشهر وازدادت ديون الدولة . وعندئذٍ تقدم الشيطان في زمن العسر والحاجة وافهم الناس انهُ رجل الدنيا وواحدها وانهُ يعرف افضل الطرق للخروج بالدولة من هذا المأزق الحرج وذلك باختراعه للعملة الورقية (بنك نوت) واخذ فاوست يضارب في المسائل المالية فاحبهُ البلاط والناس ومالوا اليهِ ثم انعكست معهُ الآية وساء عمله هذا فعدل عنهُ الى سواه واخذ يبحث عن اغلى منال للجمال حتى عرف هيلينا Helene اخيراً ونجد هذا في قصة فاوست القديمة قبل جوته ولكن الشاعر الكبير قد جعلها وفق طبيعتهِ وحاجته وجعل فاوست يبني بهيلينا Helena ويرزق منها بولد اسماه Euphorion (ويفوريون) وحي فاوست حياة شعرية وتنقل بين فنون الشعر ونواحيه وجاء الى شاطىء البحر وسكنه واصلح من شأن الارض حوله وجعلها خصبة مثمرة معمورة بالسكان وارسل الاساطيل التجارية الى البلاد الاخرى وجملة القول انهُ اوجد لنفسهِ عملاً كبير النفع كثير الخير للآخرين جعله يشعر بالراحة والطمأنينة في شيخوخته تلك الطمأنينة التي طالما جد وراءها ثم يموت فاوست وقد رضي الله عنهُ في خاتمته

اذا نظرنا الى قسمي فوست من حيث قيمتهما الشعرية رأينا القسم الاول يفضل الثاني ويتفوق عليهِ . فترى الشاعر يصف لك في الاول الحياة صافية اشخاصها يتكلمون ويعملون بينما تراه في الثاني يكثر من الاستعارات والتشابيه والاشارات وفي الاول ترى (جريتشن) انسانية يجري الدم في عروقها ذات تقى وفهم طفلة طاهرة لطيفة المعشر ظريفة الحركات بينما تراه يعني بهيلينا في القسم الثاني الشعر القديم الذي كان للاغريق والرومان من قبل . وكان جوته يعلم انه قد اخفى اشياء كثيرة في القسم الثاني وجعلها مبهمة مستورة حتى ان الايضاحات والتفاسير العديدة والشروح المختلفة لا تجعلها واضحة مفهومة للكثيرين

ولما انتهى جوته من كتابة (فاوست) شعر كأن عبئاً ثقيلاً قد رفع عن عاتقه وكان يقول انهُ اتم عمله وواجبه كشاعر . ومات جوته في فيمار في الثاني والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٣٢ بعد ان مرض اياماً قليلة ودفن في مدفن الامراء في تلك المدينة الشعرية الخالدة اللطيفة